عالم المجهول

كما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، ليست سوى صور مكبرة من نظريات العقل الانساني ، تبنيها عادة على نماذج تستمد من تجاربنا الذاتية كروزيار

لا شك في اننا اذا انكرنا العالم المجهول ، نكون قد بعدنا جهد البعد عن أسلوب العلم نفسه . فان العلم لم يحط بكل شيء ، وميدانه محدود بالظاهرات المحسوسة دون الماهيات . فعالم الماهيات برمته عالم مجهول ، ولا يدعي العلم ان في مستطاعه ان يكشف سر الماهيات بطرقه المعروفة . وما دام العلم قاصراً من ذلك ، فان من الطبيعي عند الذين يعرفون حدود العلم ، ويؤمنون بقصوره عن ادراك الماهيات ، وحتى عن تعليل جميع الظاهرات ، أن يعترفوا بأن أشياء العالم المجهول لا ينبغي ان ترفض لاول وهلة ، لان العلم لا يتناولها بأسلوبه ، أو لانها بعيدة عن أسلوب العلم .

ان نزعة العلم — Science — وطريقته ووجهة نظره ، وعلى الجملة كل ما يقع تحت مفهوم العلم من أشياء العقل البشري ، شيء حادث من مكتشفات الاعصر الحديثة . بل اننا لا نبالغ اذا قلنا مع القائلين بأن تحديد طريقة العلم ووضعها على قواعد خاصة ثابتة ، كان أبلغ أثراً وأعمق فائدة للانسان من أعظم المستكشفات الحديثة جميعاً ، اذ باستكشافها ، لم تعد قضايا العقل الانساني وكفاياته ، تتخالط ذلك التخالط الذي ظهر جلياً واضحاً في صفحات التاريخ طوال العصور الاولى .

مما لا مشاحة فيه ان جنوح العقل الى التساؤل عن حقيقة الاشياء ومصادرها ، وحوادث الكون وظاهرات الطبيعة ، كان في الواقع أول الضرورات الجوهرية التي أفضت بالانسان منذ أبعد العصور الى البحث وراء الحقيقة . فالانسان الاول عندما نزع به الفكر الى تصوير نظرياته الروحانية التي كان يعلل بها حقائق هذا الوجود ، لم يضع البذرة الاولى للدين وحده ، بل غرس مبادىء العلم وقضايا الفلسفة .

فالاساطير والخرافات ، قد تضمنت من العلم بزوراً ، كما حوت من الدين مبادىء . غير

ان العلم قد احتاج الى عصور متطاولة وموغلة في القدم، حتى أصبح له وجود مستقلٌ بذاته. فان نزعة العقل الى البحث ، ان كانت قد صورت منذ القدم مختلف صور الاديان ونظمت مبادىء الفلسفة الأولية ، فان العلم لم ينفصل عن الفلسفة ولم تفرق كفايات العقل بين قضايا الفلسفة ومبادىء العلم ونظرياته ، الا منذ عهد قريب .

ان كل الباحثين في تاريخ الفكر الانساني يعتقدون بحق ان فرنسيس باكون أول من وضع للعلم حدوداً فصلته عن الفلسفة . وذيوع « منطقه الحديث » يعد أول عهد العلم بالوجود المستقل . أما ما ندعوه اليوم « الاستكشاف العلمي » الراجع الى العكوف على درس الطبيعة ، فقد أدى بباكون الى القول بأن الطريقة المثلى التي يجب ان نمضي عليها في حل مشكلات الحياة ومسائلها ، هي الطريقة العملية المعارضة للطريقة الفلسفية ، التي ذاعت في القرون الوسطى ، وكانت تعمد الى المناقشات الكلامية ، والعلم الضروري .

ان من أخص ما نحتاج اليه في هذا الموطن أن نظهر الفرق بين نزعة العلم ونزعة الدين والفلسفة . أما الدين والفلسفة فنزعتهما ذاتية Subjective محدودة ، في انها تنسب ، أو تحاول ان تنسب ، قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها ، وهي في أتم وجودها عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات الراجعة الى الشعور أو الوعي الكامن ، والى روح الانسان اذ ترتد الى النظر في حياتها الداخلية أكثر من نظرها في عالم الطبيعة الخارجي . أما نزعة العلم فيقرر العلماء بأنها غير ذاتية ، بل موضوعية Objective عامة . والعلم ان كان في حقيقة وجوده ومرجعه ، وبحكم العقل الانساني ازاء الكون ، ذاتي كالدين والفلسفة ، الا ان موضوعية العلم تنحصر في انه ينظر في عالم الطبيعة الخارجي ، أكثر من نظره في طبيعة الروح المستترة الخفية وراء الظواهر المرئية .

يصل الدين كما تصل الفلسفة الى العالم المنظور مزودان بمطالب يحاولان من طريقها ان يخلقا جوًّا ملاءماً لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة . أما العلم فيظهر خلوًّا من كل شيء ولا يصل الى العالم، الا ليعرف الكون من طريق النظر في طبيعته . يترك العلم الطبيعة حرة في أن تلقي في روع كل بشر سرها وروايتها بلغتها الخفية . أما الدين والفلسفة فلا ترضيان للطبيعة أن تتكلم بلغتها ، فيضعان لها لغة ، وينتحيان لها أسلوباً من البلاغة مخالفاً لبلاغتها ، يرجع في كل الحالات الى استيفاء أغراضه الاولية ، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تريد الطبيعة ان تلقيها في روعنا .

ولعله يكفينا في هذا البحث أن نعرف مما سبق القول فيه اننا لا نقصد بالعلم إلاّ كل ما خرج من حيز الآداب والفن والدين والفلسفة . بحيث يكون ذا قواعد راهنة لا يتناولها

التغيير والتبديل . ولا شك عندي ان من أعظم ما كشف العقل عنه في الأعصر الحديثة ، لا طريقة العلم ، ولكن تيقّن أهل العلم بأن العلم حدوداً يقف عندها . فإن هذا الكشف قد جعل العلم يترك ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشري ، إذ بان لأهله أن وظيفة العلم تنحصر في « وصف » حقائق الكون ، لأن العلم يتناول معرفة الظاهرات وآثارها وعلاقة بعضها ببعض ، وان وظيفته بعيدة عن « تفسير » الماهيات . بذلك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة البشرية على نزعات الوهم التي سادتها زمناً ، وتحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل ، فترك للدين والفلسفة سلطانهما ، وحُدِّد للعلم حيزه .

ولكنْ هنالك بعضاً من الذين لم يهتدوا بعد إلى تحديد كفايات العقل ، مَنْ يزالون ينكرون بأن هذه العاصفة ، عاصفة العلم ، قد نامت ، ولا يزالون يريدون أن يخضعوا طبيعة العقل إلى ناحية واحدة ، ناحية العلم الموضوعية ، مستبدين غير محرَّرين من فورة القول بأن العلم هو الجدير وحده بأن يتبناه العقل .

أما هؤلاء فينكرون « العالم المجهول » ويقولون لا « مجهول » في عالم العلم ولا في عالم العقل . وهؤلاء نضع أمامهم ست مسائل من مئات المسائل ، ونتحداهم أن يثبتوا لنا انها لا تدخل في عالم المجهول ، وان العلم يمكنه أن يفسرها بطرقه المعروفة . فإذا استطاعوا فليس هنالك عالم مجهول ، وإذا عجزوا ، كان اعترافهم بالعجز ، اعترافاً بأن عالم المجهول أرحب وأوسع من عالم المعلوم ، واستتبع ذلك الاعتراف بحقيقة أخرى هي ان كل خطوة يخطوها العلم نحو معرفة شيء من عالم المجهول ، إن ضيقت شيئاً مّا من أفق الجهل ، فانها تزيد كثيراً من آفاق المجهولات .

١ — المسألة الأولى : الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزك .

خذ مثلاً النكأة التي تكتب عليها . كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك ؟ إذا نظرت اليها أو لمستها أو وقعت تحت حسك بحال من الأحوال ، فكل ما في مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك ، وليست خارجة عن حيزك . لا في لونها أو صورتها ، بل أيضاً في صلابتها وقوتها . والدليل على ذلك أن فقدك أعصاب البصر يمنع عليك أن تراها . وان فقد أعصاب اللمس يمنع عليك أن تحس بها . وان فقد الحواس جميعها يمنع عليك أن تدرك أن لها وجوداً البتة . ذلك في حين انه وان لم يكن في مستطاعك أن تعرف من وجود تلك النكأة « علميّا » إلاّ إحساسات كائنة في حيزك ، إلاّ أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة في حيز خارج عنك . فإذا اعتقدت

بما يخالف ذلك ، وأخذت تؤدي عملك بما يوحي اليك به اعتقادك هذا ، كان ذلك دليلاً على ان ميزان العقل قد اختلّ وتمكنت آفته .

٢ — المسألة الثانية : وجود ذلك الشيء الذي ندعوه العقل في ذوات من البشر غير ذواتنا .

كيف أستطيع أن أعرف أن صديقي الذي يماشيني يحوز شيئاً يقال له العقل ؟ اني لا أستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة اتخذ بهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوي ، أداة لها . فاذا كان معتقدي في عقل صاحبي يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منهُ علمياً ، لما استطعت أن أعتقد في وجوده مطلقاً ، لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس . فان وجود العقل في صاحبي كوجود « واجب الوجود » : كلاهما اعتقاد إرادي . إننا لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفي الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به ، كأحد الفروض الضرورية الجوهرية التي يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا .

٣ — المسألة الثالثة : الاعتقاد في تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملذات .

كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة ، وان العواطف العقلية أزكى طبيعة من العواطف الحسية أو حب الذات ؟ كيف ندرك ان الشجاعة وكرم الاخلاق وتضحية النفس ، أسمى طبيعة من حب الملاذ والخشونة والحسيات بضروبها ؟ ان خلايا المخ التي تنشأ من تفاعلها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة ، كلها تماثل المادة ، ولا تدرك ، كالمادة ، شيئاً من هذه الانفعالات . ونعرف من جهة أخرى ، وبقدر ما يسمح لنا به العلم الطبيعي ، ان هذه الخلايا متشابهة في المرتبة والقدر . ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بأن هنالك فرقاً في المرتبة واضحاً بين الانفعالات المتشاكلة ، ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليل . وهنالك تتعطل المصالح العظمى في حياة الانسان ، كالتفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة ، والمدح والذم ، والشرف والاسفاف ، أو انها تصبح على الاقل أشياء غير واقعة أو مضادة للبديهة .

٤ — المسألة الرابعة : الاعتقاد في بقاء القوة . أي حقيقة أن كمية القوة الموجودة في الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص .

يقول العلامة هربرت سبنسر ، كبير مفكري العلماء في القرن الماضي ، إن هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة ، وانه النبع الخفي الذي تستمد منه كل النواميس الطبيعية . يقول سبنسر إن كل النواميس الطبيعية الأخرى ليست سوى توابع تعود إلى هذه الحقيقة

العلمي . وكل الاستنتاج العلمي « يفرض » ان القوة ثابتة ؛ لأنها إذا لم تكن كذلك ، أصبحت أدوات قياس الابعاد ، التي هي في ذاتها عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا الأخرى التي نحقق بها استنتاجاتنا العلمية ، متغايرة بين يوم وآخر ، أو بين ساعة وأخرى ، وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء القوة ، ولو لم نستطع أن نثبته علميًا ، اعتقاداً إلزاميًا . والعلامة « سبنسر » يعتقد أن هذا الفرض ، ولئن كان أساس العلم ، إلا أن العلم يعجز عن إدراكه . وهذا مثال حق يثبت قاعدة أن كثيراً مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعي ، يجب أن يعتقد في وجوده . إذ لولا هذا الأمر ، لتعطّل ذلك الهيكل النظامي الذي ترتكز عليه معرفتنا .

٥ — المسألة الخامسة : الاعتقاد في أن المادة توجد بوجود قوّتى الجذب والدفع .

وهذه مسألة أخرى تحقق لدينا أن من الحقائق ما لا يفقهه العلم ، مع استحالة عدم الاعتقاد به .

أما ان قوتي الجذب والدفع حقيقة طبيعية ، فذلك مما لا سبيل إلى إدحاضه . فانا إذا أخذنا جسما وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعض فانه يقاوم مجهودنا . وكذلك يقاومنا إذا أردنا أن نضغط أجزاءه ، مثبتاً بذلك انه إنما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع في آن واحد . وإلى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل في العلم الطبيعي ، بل وفي أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فان هذه الحقيقة تعدو الادراك العلمي في تعليل كيف ان دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين انها تدفعها وتقاومها .

وفي ذلك يقول « سبنسر » — « إننا لا نستطيع أن نأتي بقطعة من المادة يظهر فيها أن جزءاً يجذب آخر في حين انه يدفعه . ومع هذا ، فان الاعتقاد بذلك الرأي ضروري »

٦ — المسألة السادسة : الاعتقاد في السببية العلية .

وهو عبارة عن الاعتقاد في إن كل نتيجة لا بد لها من سبب يناظرها في القيمة . وهو اعتقاد في حقيقة تساق الى اليقين بها ، ولا يمكن معرفتها من طريق علمي .

ليس في تتابع وقوع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما في مستطاعنا ان نرى ان هنالك سلسلة من سوابق ولواحق . ومع ذلك نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بتلك الحلقات غير المرئية من السببيات التي تربط بعض الاشياء ببعض ، ذلك الاعتقاد الذي يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه . والسبب في ان حقيقة السببية العلية لا تقتدر على الوصول الى الكشف عن ماهيتها ، راجع الى انها ليست غير مظهر من مظاهر بقاء القوة . وما دام بقاء القوة لا يمكن معرفته من طريق العلم ، فيتبع ذلك ان يمتنع على العلم

معرفة ماهية السببية . فانا عند ما اقول إن نتيجة مّا يجب ان يكون لها سبب ، فانما نعني ان القوة التي يتكوّن منها ذلك السبب لا بد من ان تكون قد استمدت من ناحية اخرى ، أي ان لها سبباً عنه حدثت . فان نتيجة ما مثلاً قد تقع تحت حسنا ، وقد نعنى لها بعدد أربعة ، فانا حينذاك نعتقد أيضاً ان اثنين واثنين او ثلاثة وواحداً ، لا بد من أن تتقدم وجودها . أما الاعتقاد بأن الاربعة يمكن وجودها من غير وجود اثنين واثنين أو ما يساويهما وجوداً سابقاً على الاربعة ، فاعتقاد بأن للقوة قد حدثت بعد العدم ، وفي ذلك نكران لحقيقة بقاء القوة

بذلك نرى أن القواعد الاولية التي تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا المنظومة ، يجب ان يعتقد بها ولو لم يكن في مستطاع العلم أن يعرفها .

أليست هذه عوالم مجهولة ، يعترف بها العلم ؟

اسماعيل مظهر

عن عزر الوثنيان

لأهل جزر الوثنيان عادة في الزواج من أعجب ما يروي الاجتماعيون . فالرجل منهم حق التزوج من عدد من النساء بقدر ما يستطيع أن يكفل بالصيد . وللمرأة حق التزوج من عدد من الرجال بقدر ما تستطيع أن تخدم منهم في بيتها . والزوجات يؤخذن بالاسر او بالشراء من الآباء . فاذا أسرت زوجة او اشتريت ابتني بها زوجها ، أي هرب بها واختفى عن الاعين ، تشبهاً بعادة جرى عليها اسلاف الكهوف منذ أزمان موغلة في القدم .

فاذا تزوج رجل من امرأة عمل جهده في أن يضم الى حريمه معها كل أخواتها الصغيرات وبنات عمومتها وخئولتها . وعلى العكس من ذلك ، فان امرأة متزوجة من رجل ما ، تصبح بحكم العادة زوجة لاخوة بعلها وأبناء عمومته وخئولته أيضاً .

وعقاب الاولاد نادر . وصنف العقاب الشائع عندهم ، هو ذلك الصنف الشائع بين الاسكيمو عامة . فان الطفل اذا لج في البكاء والصخب عمدت أمه الى الماء فنضحته به . فاذا كان الفصل شتاء ، غمرته في فجوة بين الثلوج ، فاذا اعتراه الماء البارد الاثر فعل فيه ما يفعل السحر ، فكف عن البكاء وهدأت اعصابه .